

تبسيط مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي دراسة في مفهوم الثقافة وعناصرها

د/ حورية بكوش

جامعة أحمد دراية - أدرار.

الملخص:

تحاول هذه الورقة البحثية تبسيط مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي عن طريق تحليل مفهومها، ولأجل ذلك تناولنا دواعي التفكير في مشروع ثقافي عربي، فمفهوم الغرب للثقافة، وكيف عَقِبَ مالك بن نبي على هذه المفاهيم ليستنتج أنها مفاهيم لا تناسب راهننا ولا عقيدتنا، وأنها مفاهيم تخصّ مجتمع مختلف زمانيا عن مجتمعنا. ثم تناولنا تعريفه للثقافة التي يراها هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته وفصلنا القول في العناصر التي تكوّن الثقافة وحاولنا في أثناء بحثنا أن نصّح المفاهيم الخاطئة التي ظلت تلازم مفهوم الثقافة.

Résumé: Nous tenterons dans cet article de mettre l'accent sur la notion de culture chez Malek Ben Nabi via les conditions d'émergence d'un projet culturel arabe. Dans cette étude nous nous intéresserons au sens que l'occident donne à la culture et quelles réflexions portent Malek BEN Nabi sur ces significations afin de signaler que c'est complètement contradictoire avec notre époque et notre idéologie. Et que ceux sont des explications qui concernent une société totalement différente sur les plans temporel et sociétal.

Dans un premier temps, nous avons dressé le portrait de culture selon Malek Ben Nabi qu'il considère comme un contexte.

Dans un deuxième temps, nous avons tenté de corriger les mauvaises interprétations qui considèrent que la culture est une science.

إنّ بلورة نظرية خاصّة بالثقافة وإفراد مؤلف موسوم بمشكلة الثقافة يعدّ مؤشرا على وجود صراع حضاري يحاول استلابنا وإفراغنا من محمولاتنا الحضارية الإسلامية وجعلنا مطيّة للنمط الحضاري الثقافي الغربي. ومن جهة ثانية هو دليل دامغ على دور الثقافة في البناء الحضاري والنهوض بالأمة. فكان لزاما على مفكّري الأمة توضيح معالم الطريق للعودة إلى المنابع الأصيلة وتفادي قابلية استعمارنا بتحسيننا ضدّ استلاب وهيمنة الآخر.

لأجل هذا كتب مالك بن نبي، ودعا إلى الالتفاف حول الثقافة التي تنبع من معتقداتنا وتصوراتنا الجمالية والأخلاقية المنبعثة من الإسلام. فالثقافة عنده مشكل عصي يحتاج إلى التحليل و النظر. وهي صارت أزمة كما يرى في مقدّمة كتابه في طبعته الثانية المزودة مشكلة الثقافة: " إنّ الفصل الذي عقدته في هذه الطبعة لـ (الأزمة الثقافية)، إنّما قصدت به أن أضع بعض معالم الإنذار على بعض المطبّات، التي تجعل سير المجتمع مستحيلا، فلعلّ القارئ العربي يعيره بعض الاهتمام"¹.

1- مفهوم الثقافة:

ظلّ مالك بن نبي يتحدث عن الثقافة ويحاضر فيها، وكان أوّل كتاب تحدّث فيه عن الثقافة: (شروط النهضة) الصادر باللغة الفرنسية في باريس عام 1949م، ثم خصّص كتابا لهذه القضية، وهو كتاب (مشكلة الثقافة) الصادر باللغة العربية في القاهرة عام 1959م.

¹ --مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق 12 ص 12.

فضلا عن الحديث عنها من خلال المحاضرات التي ألقاها في القاهرة ودمشق وطرابلس، وفي الجزائر بعد الاستقلال. ولعلّ مردّ ذلك إلى قناعاته أولاً بدور التوجيه الثقافي في النهوض الحضاري، ومن جهة ثانية، لمس إلحاح الشباب ورغبتهم في إدراك ماهية الثقافة "ففي المعادي في القاهرة كان يسكن مالك بن نبي عام 1959 م، وكان الطلاب يرتادون مجلسه بين الحين والحين، وأكثرهم يأتيه مستوحا مفهوم الثقافة فيما كتب في (شروط النهضة وفكرة الأفريقية الآسيوية)"¹

لتحديد مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي يجب أن نشير إلى أهمية الأفكار في صناعة مفهوم الثقافة. مع أن مالك بن نبي يقرّ بأنّ الثقافة لا تضم في مفهومها الأفكار فقط بل تضمّ أشياء أعمّ من ذلك بكثير كأسلوب الحياة والسلوك الاجتماعي.

لكنّ اهتمام مالك بن نبي بالأفكار في تحديد نظريته للثقافة مردّه إلى حاجة الوضع العربي الراهن إلى ذلك. ثمّ إنّ نظام الأفكار وحده كفيل إذا ما تغيّر بتغيير وجهة المجتمع وتطوره "إنّ الأفكار تكون في مجموعها جزءا هاما من أدوات التطور في مجتمع معين، كما أنّ مختلف مراحل تطوره هي . في الحقيقة أشكال متنوّعة لحركة التطور في مجتمع معين"² وعليه فإنّ نهضة الأمة بحاجة إلى تطور ونهوض فكري سينجرّ عنه آليا تطور في باقي مناحي الحياة.

ما مفهوم الثقافة إذن عند مالك بن نبي ؟

لا بدّ أن نسجل ملاحظات مهمة قبل الخلوص إلى تعريف شامل:

¹ - ينظر المرجع السابق ص 13.

² - المرجع نفسه ص 13

- لا وجود لمصطلح الثقافة في مؤلفات ابن خلدون باعتباره المرجع الأول لعلم الاجتماع.
- على الرغم من ازدهار الثقافة في العصرين الأموي والعباسي لم يرد المصطلح ثقافة ولا خصصت منظمات أو أعمال ثقافية. فهناك ظاهرة تثقيف تلقائي هي - كما يرى مالك بن نبي - ثمرة طبيعية لأي مجتمع في أي وضع كان. فالمجتمعات البدائية لها ثقافتها.¹
- كلمة ثقافة أوروبية النشأة. ووجدت في لغتنا بطريقة التوليد من أصل الفعل ثقّف.
- كلمة "ثقافة" العربية لم تكتسب قوة التحديد الضرورية وهي بحاجة دائما إلى نظيرتها الأجنبية هذه الأخيرة التي يعدها مالك بن نبي نتيجة العبقورية الأوروبية وثمره من ثمار عصر النهضة حيث ازدهرت المؤلفات الجلية في الفن والأدب والفكر.
- كيف حدد الغربيون تعريف الثقافة ؟
- يرى مالك بن نبي أن الثقافة كمصطلح غربي مأخوذ من كلمة culture المأخوذة من الأصل اللاتيني *cultivare* وهي تعني الزراعة. فيعتقد الرجل علاقة بين الزراعة التي تعتبر العملية التي تضم بين دفتيها عمليات الحرث والبذر والحصاد والتي بها تحدد وتنظم إنتاجية الأرض. وبين الثقافة كصورة لما تفتقت عنه أذهان المفكرين.² فاللفظة المجازية culture عبرت عن حركة النهضة الفكرية في فرنسا وأوروبا

¹ - ينظر المرجع نفسه ص 22 و 24.

² - ينظر المرجع السابق ص 26.

على وجه العموم أو لنقل كانت تحمل مدلول ثمرات الفكر في ميادين الفن والفلسفة والعلم والقانون.

واعتقد أن هذا المفهوم كان تاريخيا إذ هو تاريخ الآثار الفكرية. غير أن هذا التعريف لن يصمد أمام القرن التاسع عشر قرن التشريح والتحليل الكيميائي فلا مناص أن تنال كلمة الثقافة حقها من التمحيص بدراسة أجزائها وبنائها وعناصرها التركيبية الأولى تشريحا وتحليلا بدل من تناولها كأثار للتاريخ فحسب.

فكرة الثقافة تضم أيضا في رحابتها الواقع الاجتماعي الذي يتجاوز بدوره الفردية الأوربية والمجتمعات الضيقة إلى العبقورية الأنسانية قاطبة وكما يقول مالك بن نبي " ولقد رحّب مجال البحث الاجتماعي في القرن التاسع عشر بتأثر التوسع الاستعماري ذاته، ورحّب معه بمفهوم الثقافة... اتسع هذا المفهوم حتى ضمّ مجالا جغرافيا أوسع ومعنى اجتماعيا أشمل إلى أن ظفر بدراسات ليفي بريل عن ثقافات المجتمعات البدائية"¹ إن مجموع ما قيل وما قدّم من مفاهيم وتفسيرات للثقافة يصبّ في مدرستين²:

■ المدرسة الغربية ترى الثقافة تراث الإنسانية الإغريقية اللاتينية بمعنى أن مشكلتها ذات علاقة وظيفية بالإنسان أي هي فلسفة الإنسان. وأورد مالك بن نبي أهم تعريفين غربيين للثقافة لصاحبيهما رالف لنتون والثاني لصاحبه ويليا مأوَجِبِرِن.

¹ - المرجع نفسه ص 29.

² - ينظر شروط النهضة، مالك بن نبي دار الفكر دمشق ط 2006. ص 88 وينظر مشكل الثقافة ص 28 وما يليها.

تعريف رالف لانتون	الثقافة كلّ تتداخل أجزاؤه تداخلا وثيقا، ولكن من الممكن أن نتعرف فيه على شكل بنائي معين، أي نتعرف فيه على عناصر مختلفة هي التي تكون الكل. الثقافة = مجال العموميات (الدين اللغة التقاليد...) ← تكشف به ألوان الفساد + مستوى الأفكار الخاصة الناتجة عن التخصص المهني ← التفرقة بين مختلف الطبقات الاجتماعية. ويحيط بهما مستوى ثالث هو نتيجة حركة تطور الأفكار الجديدة على كل الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وهذا المستوى يؤثر في العموميات وأفكار التخصص.
تعقيب مالك بن نبي	يوافق مالك بن نبي رالف في وجود مستويين للأفكار عام وخاص وهو ذاته ما ذهب إليه في كتابه الظاهرة القرآنية بوجود أفكار شعبية وأخرى علمية. غير أنه لا يوافق في المستوى الثالث فهو لا يرى أنّ المكتشفات والمخترعات والمذاهب الجديدة هي التي تسبب كل تغيير في الثقافة
تعريف ويليام اوجبرن	يفرق ويليام في الثقافة بين مجالين هما: الثقافة المادية (مجموع الأشياء وأدوات العمل). والثقافة المتكيفة (الجانب الاجتماعي كالعقائد والعادات والتقاليد والأفكار واللغة والعلم. التغير الثقافي يبدأ في مجال الأشياء والأدوات ثم يمتد ليعدل الجانب الاجتماعي ← الأشياء تحمل قوة التغيير.
تعقيب مالك بن نبي	معنى هذا أن زوال الأشياء يؤدي إلى تفويض أركان الثقافة وهذا الكلام لا يحتكم إلى دليل ويضرب مالك بن نبي مثال عن ألمانيا التي شهدت انهيار أشياءها ولكن عالم أفكارها أعاد له الحياة.

الخلاصة	كلاهما - أي التعريفين - نابعين من فكر إحصائي في عالم من الأفكار كما هو الحال عند رالف. وعالم من الأشياء تحوطه الأفكار كما عند أوجبرن.
---------	---

- المدرسة الاشتراكية: حيث تفكير ماركس يصبغ كل القيم. تكون الثقافة ذات علاقة وظيفية بالجماعة أي هي فلسفة المجتمع.

فكونستا نتينوف	إنّ حياة المجتمع المادية هي واقع موضوعي مستقل عن إرادة الناس، أما حياة المجتمع العقلية...يعني كل ما يحدّد الثقافة فهي كلّها انعكاس هذا الواقع الموضوعي وفي موضع آخر يقول مستدركا: ولكن هذا لا يعني طبعا أنّ الأفكار الاجتماعية -مهما كانت الصورة الفكرية التي تتجلى فيها- لا تمارس بدورها رد فعل على تطور شروط الحياة المادية للمجتمع.
تعقيب مالك بن نبي	هذا التعريف لا يقيم وزنا للأفكار في تحديد الثقافة وفي تطور الوسط الذي تنشأ فيه. ثمة تقسيم يشابه ما ذهب إليه وليام أوجبرن :الثقافة المادية والثقافة المتكيفة.
تعريف ماتسي تونج.	إنّ كل ثقافة معينة هي انعكاس من حيث شكل مفهومها لمجتمع معين.
تعقيبين نبي	التعريف نابع من نطاق مجتمع إيديولوجيف الثقافة ذات علاقة وظيفية بالجماعة.
الخلاصة	التعاريف الماركسية للثقافة تذهب إلى أن الثقافة انعكاس للمجتمع. غير أنّ المشكل الأكبر في عالمنا العربي هو كيف

نخلق الواقع الاجتماعي؟.

وعليه فمالك بن نبي لا يعترض على هذه المفاهيم الغربية ولكنه يسجل ملاحظات تسوّغ له تكوين مذهب ثقافي إسلامي عربي يخصنا:

- رب شيء جديد في مرحلة تاريخية معينة يصبح قديما في مرحلة تاريخية أخرى كما يرى ماوت ستينونغ فلو صحّ هذا في مجتمع واحد في حقبتين تاريخيتين مختلفتين فمن باب أولى أن يكون صحيحا بالنسبة لمجتمعين مختلفين. لذلك من المخاطرة أن نقتبس حلولنا من الآخر.

- لو تصفحنا النظرية الغربية للثقافة لوجدناها -إلجانب عالم الأشياء- فيها عنصر ضمني مكوّن للتعريف وهو الوسط التاريخي والإقليمي أي الحضارة الغربية. كما أنّ الماركسية صنعت تعريفها ونظريتها ضمن سياق ايدولوجي معيّن وهو الفكر الماركسي. فعليه ثمة خطورة للعنصر الضمني الذي يمنعنا من تطبيق النظرية في مجتمعاتنا وبالتالي التفكير في نظريتنا الخاصة.

- نحن مجتمع يعاني من فقر عالم الأشياء ويملك عالم أفكار مغاير للآخر منه سنحاول بعث ثقافتنا. وبالتالي ستكون الثقافة عنصرا حيويا في النهوض بحضارتنا. وكما يقول مالك بن نبي " هذا ما نريد أن نحاوله هنا، حين نربط ربطا وثيقا بين الثقافة والحضارة. وفي ضوء هذا الربط تصبح الثقافة نظرية في السلوك، أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة.¹

1- تعريف الثقافة عند مالك بن نبي :

ينتهي مالك بن نبي بعد نقده للمدرستين إلى الخلوص بأن الثقافة فكرة ذات وجوه كثيرة ينبغي أن نطبق في تعريفها منهج الشيء المعقّد الذي لا

¹ - شروط النهضة ص 88.

يدرك في صورة واحدة، فليست مجموعة الأفكار أو مجموعة من الأفكار والأشياء، على النمط الغربي، كما أنها ليست انعكاسا للمجتمع على الطريقة الماركسية.¹

نحن نختلف عن المجتمعات المذكورة سلفا، فهي مجتمعات سجلت فاعليتها القصوى وبلغت شأوا من الحضارة ونظرتها للثقافة بل تعريفها لها ينبع من هذا المجتمع بعكس أمة النهضة عندها مشروع ما زال يشوبه الغموض. لأجل هذا تعددت تعاريف الثقافة وإذا جئنا إلى تعريفها لا نتناولها كشيء بل على أساس أنها علاقة متبادلة بين عناصر ثلاث عناصر نفسية (الفرد) وعناصر اجتماعية (الجماعة) ثم العلاقة بين العناصر المذكورة.

"الثقافة مجموعة من الصفات الخلقية والاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته، كرأس مال أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته."²

يعتبر هذا التعريف جامعا لمدرستي الغرب والماركسية إذن أن الثقافة التي نعيشها هنا هي فلسفة الفرد + فلسفة المجتمع. والرابط الذي يؤدي إلى الانسجام بين الفردي والجماعي هو الشرارة الروحية.

ومالك بن نبي يحاول أن ينقي مفهوم الثقافة مما علق به لتكون قادرة على المضي في بناء الحضارة، فيضع ممهلات مهمة ويرصد نقاطا أساسية لتحديد أزمة المفهوم:

¹ - ينظر مشكلة الثقافة ص 41.

² - شروط النهضة ص 89.

■ الثقافة ليست مجرد علم يتعلّمه الإنسان في المدارس ويطالعه في الكتب.

■ لا بدّ من عودة الثقافة إلى وظيفتها الحضارية، وذلك بتنظيف مفهومها من الحشو والانحراف الناجمين عن عدم فهم الثقافة ومن صور هذا الانحراف وجود (المتعالم المتعاقل) حامل اللافطات العلمية¹.

وقد عبّر مالك بن نبي في كتابه تأملات عن هذه المحنة بقوله: فالشخصيات التي يمكنها المساهمة ماديا في القيام بمشروع ثقافي لا تشعر بأهميته ثم أنّ هذه الطبقة المثقفة تعاني ضعفا. فالتعليم والعلم شيء والثقافة شيء آخر².

والأمر الثاني الخطير يكمن في وجود فاعلية لبعض الأفكار ويوجد اللافاعلية لغيرها. "إننا إذا عرفنا تاريخ مجتمع معين، فسنجد أنّه كما أن لديه مقبرة يستودعها موتاه، فإنّ لديه مقبرة يستودعها أفكاره الميتة، التي لم يعد لها دور اجتماعي"³. وبعض الأفكار تفقد فاعليتها لأنها فقدت صلاتها وشروطها النفسية والاجتماعية.

■ لا تاريخ بلا ثقافة: الثقافة بمفهومها التاريخي ليست علما يتعلمه الإنسان بل هي محيط يحيط به وإطار يتحرك داخله، فهي كتلة من العادات المتجانسة والعبقريات المتقاربة والتقاليد والأذواق. هي كل ما يمنح الحضارة سمتها الخاص ويحدد قطبيها - كما يقول مالك بن نبي -

¹ - ينظر المرجع نفسه ص 90-91

² - ينظر تأملات مالك بن نبي دار الفكر ط 2006 ص 146.

³ - مشكلة الثقافة ص 46.

عقلية ابن خلدون وروحانية الغزالي أو كما عند الغرب عقلية ديكارت وروحانية جاك دريدا.¹

■ تربويا تحدد الثقافة بوضع أهدافها وما تتطلبه من وسائل التطبيق. الثقافة كالدّم الذي يسري في جسم الإنسان وهي تتدخل في شؤون الفرد وفي بناء المجتمع وتعالج مشكلة القيادة فيه كما تعالج مشكلة الجماهير.

■ حتى تكون للثقافة فاعليتها وحتى نضمن خلوها من التشويه الذي يعيق حركية النهضة لا بد أن تحدد العناصر التي تكون الثقافة كمفهوم موجّه للنهضة.

2- العناصر المتداخلة التي تكون الثقافة كبرنامج تربوي موجّه:
أ- عنصر الأخلاق لتكوين الصلات الاجتماعية (المبدأ الأخلاقي أو التوجيه الأخلاقي): المجتمع الذي يريد تكوين حضارة يحتاج إلى قوى تماسك ووحدة. يرى بن نبي أنّ الأخلاق كمعطى اجتماعي هي الكفيلة بهذا الربط بين الأفراد.²

وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى:
﴿وَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾³

إذن الروابط الدينية بما تحويه من أخلاق هي الأقدر على الربط بين أفراد المجتمع. ولكن قد ينظر البعض إلى الحضارة الغربية المدنية فيرون في هذا العنصر محض حشو.

¹ - ينظر شروط النهضة ص 92

² - ينظر شروط النهضة ص 94 وينظر أيضا مشكلة الثقافة ص 89.

³ - الأنفال 63.

الحقّ أنّ مالك بن نبي استشرّف هذه النظرة النقدية وواجهها بقوله: "إنّ شبابنا لينظرون إلى المدنية الغربية في يومها الحالي، ويضربون صفحا عن أمسها الغابر.."¹ ويضرب مثالا عن واقع دولة مدنية كفرنسا التي بها مشروع حضانة الأطفال يبدو المشروع مدني لا ديني في حين لو درسنا تاريخ هذا المشروع فهو من وحي القديس فانسان دي بولالذي أنشأ مشروع الأطفال المشرّدين خلال النصف الأوّل من القرن 17.

مشكلتنا كما يقول ابن نبي أننا ننظر إلى إنتاج الحضارة الغربية المادي على أنها نتيجة صناعات وعلوم وفنون ونضرب صفحا عن الصلات الاجتماعية التي تعدّ الأساس الخلقي الذي قامت عليه.

لا مناص أن هذا التوجيه الأخلاقي مهم للنهوض بثقافتنا حضارتنا. وهو ضروري لتماسك المجتمع ولعل أبهى صوره ما كان بين المهاجرين والأنصار من تآخ.

ولا يجب أن نغفل المنبع الأصيل لهذا التوجه الأخلاقي الاجتماعي وهو الدين:

"يبدو الدين ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته، كما تحكم الجاذبية المادة، وتتحكّم في تطوّرها"²

في كتاب تأملات يعطي مالك بن نبي للعنصر الأخلاقي بعده العميق والخطر فهو يرى أنّ شبكة الصلات الثقافية تختل حتما في أي بلد إذا اختلّ فيه المبدأ الأخلاقي وفاعلية المجتمعات تزيد وتنقص وفق تأثير العامل الأخلاقي ذلك أنّ المبدأ أو العنصر الأخلاقي يقوم بضبط عالم

¹ - شروط النهضة ص 95

² - الظاهرة القرآنية مالك بن نبي دار الفكر دمشق، ط6، 2006 ص 300

الأشخاص الذي لا نتصور بدونه عالم الأشياء ولا عالم المفاهيم. وهنا يبرز مالك بن نبي الفرق الجوهرى بين الثقافة والعلم. فالعلم لا يهتم إلا بالصّلات الخاصة بالمفاهيم والأشياء. على عكس الثقافة التي تعنى بالعلاقة والصّلات بين الأفراد. ويضرب لذلك مثلا يمكن تلخيصه كما يلي¹: رجل عالم: عنده إمام بالمشكلة كفكرة غير أنّه لا يملك فاعلية تؤهله إلى جعلها عملا.(علم فقط)

رجل مثقف: عنده إمام بالفكرة والدافع الأخلاقي يجعله ينفذ الفكرة (علم + عمل).

وعليه فالمبدأ الأخلاقي يقرّر الاتجاه العام للمجتمع بتحديد الدوافع والغايات ولكنّه أحوج ما يكون إلى مبدأ آخر يحسن صياغة الصور والأشياء وتجميلها إنّه العنصر الموالى.

ب- عنصر ذوق الجمال أو المبدأ الجمالى (التوجيه الجمالى):

للجمال كما للقبّح كبير تأثير في الروح الاجتماعية إذ منه تنبع الأفكار. وقد أدرك علماء الاجتماع والنفس هذا التأثير البليغ للجمال في الروح الاجتماعية فخصّوه بالدرس والتصنيف مثلما فعل الغزالي وهم يروون أن الخير والجمال لصيقين ببعض في رحلة النهوض.

يلعب الجمال دورا مهما، إذ أنّ الأفكار هي المنوال الذي تنسج عليه الأعمال. بل لنقل أن العمل هو تجسيد لفكرة ؛ هذه الفكرة تتجسّد وتتولد من الصور المحسنة الموجودة في المحيط الاجتماعي فتنعكس في نفس متلقّيها فإمّا يقدّم جمالا يضارع الجمال الذي تلقى صورته من المحيط، وإمّا

¹ - ينظر تأملات ص 138-139.

يغرقنا في السماجة المستهجنة التي حصد صورها من الواقع الاجتماعي المعيش.

الذوق الجميل يجعل صاحبه متوخيا الإحسان في العمل، ليس متوخيا لمصلحة بقدر ما هو تعزيز للفاعلية والديناميكية إذ أن الجمال سلوك. وغياب الذوق الجميل قد يوقعنا في مشكلات جزئية. إنّ بعض المنشورات الحكومية الرسمية التي نعتقد أنّها وضعت من أجل إرساء النظام. هي في الواقع صورة من صور تجميل المجتمع فطلاء السيارات العمومية بنفس اللون أو منع نشر الغسيل في شرفات العمارات. أو ضرورة منع إلقاء أعقاب السجائر أو طلاء الأرصفة كلها مظاهر تجميل من شأنها خلق مناخ مناسب للتفكير.

لأجل ذلك قال ابن نبي: " إنّ الجمال هو وجه الوطن في العالم، فلنحفظ وجهنا كي تحفظ كرامتنا"¹.

ت- المنطق العملي:

يريد مالك بن نبي أن يبين عن العنصر الثالث من عناصر الثقافة وهو المنطق العملي الذي يقصد به كيفية استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من وسائل معيئة. ونحن كأمة تعيش حالة اللافاعلية بحاجة إلى هذا المنطق لتفعيل الفرد والمجتمع. يرى ابن نبي أنّ وجود منطق عملي يسهل ويفعل الأعمال وهو منطق تطبيقي لا مجرد " ونحن أحوج ما نكون إلى هذا المنطق لأنّ العقل المجرد متوفّر في بلادنا، غير أنّ العقل التطبيقي الذي يتكوّن في جوهره من الإرادة والانتباه شيء يكاد يكون معدوما. " ²

¹ - مشكلة الثقافة ص 75.

² - مشكلة الثقافة ص 86.

مشكلة المسلم أنّه ربما يفكر ويحتكم إلى ذوق ولكن عنصر التطبيق العملي يعوزه فتبقى أفكاره في لجج التجريد. ربما يكون تفكيره مؤثرا ولكن الأهم هو تحويله إلى نشاط فعلي. ويعبر عنها بقوله: نحن حالمون ينقصنا المنطق العملي.¹

ث- الفن التطبيقي (الصناعة أو التوجيه الصناعي):

لعل المبدأ الأخلاقي وذوق الجمال والمنطق العملي لا تكون لوحدها شيئا بدون وسائل. هذه الوسائل يتيحها العلم أو الصناعة على حد تعبير ابن خلدون. إذن عالم الأشياء ضروري في تكوين ثقافة الأمة وهذه الأشياء تتاح بالعلم أو الصناعة.

وإذا كانت الأشياء وسيلة لكسب العيش للفرد فهي وسيلة للمحافظة على كيان واستمرار ونمو المجتمع. وكل الفنون والمهن والقدرات التطبيقية تدخل في مفهوم الصناعة.²

في الأخير يخلص بن نبي إلى أنّ الثقافة تشتمل على أربعة فصول هي: الأخلاق، الجمال، منطق عملي، العلم (الصناعة).

بيد أنّ الأوليات أو المفاضلة تختلف، ففي الوقت الذي نرى ورأى فيه مالك بن نبي أنّ البعد الأخلاقي هو الأول والدافع والمنارة والمنطلق، رأت الحضارة الغربية المعاصرة أنّه يأتي بعد الجمال، بل إنّ الجمال هو الذي يوجّه الحضارة المعاصرة لذلك صرح تولستوي في كتابه ما هو الفن أن فكرة الجمال بدأت تحتل المكان الأول في عصر النهضة.³

¹ - نفسه ص 88

² - السابق ص ن.

³ - ينظر تأملات ص 152

وتوجيه الثقافة للنهوض بالحضارة أمر ضروري يعوزه تحديد مفهوم الثقافة وتنقيتها مما يعيق فهمها وبالتالي توجيهها.

خاتمة وتوصيات:

- لا بدّ أن تُصحّح علاقتنا بالثقافة لكي نضمن عودتنا إلى ركب الحضارة. ذلك أنّ الثقافة ليست مجرد أشياء وأفكار بقدر ما هي جو تربوي سلوكي. يستمد روحه من الدين ممثلا في أحد أهم أركان وعناصر الثقافة (الأخلاق).

- ولا يتم الجو الثقافي ما لم يتدعم بالذوق الجمالي الذي يسهم في تحسين العمل.

- كما أنّ الثقافة بوصفها برنامجا تربويا موجّها بحاجة إلى منطق عملي يفعل أداءات الأفراد ويمنح الأعمال القدرة على الاستفادة القصوى من الأشياء المتاحة.

- وفي الأخير يركز مالك بن نبي على عنصر العلم المعبر عنه بالصناعة مبدأ مهماً في توفير عالم الأشياء والوسائل. لكي تسهم الوسائل رفقة عالم الأفكار في خلق الجو الذي يدفع عجلة النهضة ويتجاوز بسلام الأزمة الثقافية التي عادة قد تقبر مجتمعات أو تكون الشرارة التي تعيد بعث مجتمع معين.

و من أهم مظاهر وإرهاصات هذه الأزمة الثقافية انفلات الطاقة الحيوية للأفراد من قيودها، أو انكماش الأفراد، وعدم قدرتهم على النقد البناء، وبالتالي تلاشي الصلات الاجتماعية. أو تراجع الأخلاقي في سبيل فسح المجال للجمالي.

هذه الأزمة من شأنها أن تولّد مجتمعا أكثر قوة وصلابة أو لنقل يولد من جديد لو قدر لنا تشخيصها في بداياتها دون تلفيق أو تعمية، كما أنّه

يمكن في حالات اليأس والتقهقر الشديد؛ أن يستسلم المجتمع للواقع بفعل قوى خفية انتهائية يرضيها هذا الواقع الذي تصبغه بمصطلح ملفق هو الواقعية.

لذلك ينبغي أن ندرك أن المحاولات الفاشلة المتكررة في الميادين الصناعية العسكرية الأخلاقية السياسية هي ناقوس الخطر الذي يشي بقدوم الانتكاسة والتي يجب تلافيها بمنطق عدم إخفاء الإخفاق وتسمية الأسماء بمسمياتها.

المراجع:

- القرآن الكريم. رواية حفص عن عاصم.
- 1- تأملات، مالك بن نبي دار الفكر ط 2006.
- 2- شروط النهضة مالك بن نبي دار الفكر دمشق ط 2006.
- 3- الظاهرة القرآنية. دار الفكر دمشق ط 2006.
- 4- مشكلة الثقافة تر عبد الصبور شاهين ،دار الفكر دمشق، ط 12